صـــفحات ونفحـات

من الحياة الروحيـــة المحمدية

بقلم : الدكتور محمد مصطفى حلمى
أستاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

وقفت معك فى المقال السابق عند الوجـه الاول من وجهى الحيـــاة الروحية المحمدية ، وهو ذلك الوجه الذى تتجلى على صفحته حيـــاة نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام متحنثا فى غار حراء ، متـأملا فى ملـكوت الارض والسماء ، منتهيا الى أقصى ما ينتهى اليه بشر من صـفاء ونقاء . وخلصت معى فى ذلك المقال الى أن حياة التحنث تلك ، وماكانت تستتبعه من رياضة ومجاهدة ، وما كانت تثمره فى نفس صاحبها عليه الصـلاة والسلام من نقاء السيرة ، وجلاء البصيرة ، هو المنبع الاول الذى استقى منه الصوفية طرقهم العملية ، ووسائلهم الروحيـــة ، فى تأديب النفوس وتهذيب القلوب ، وتصفية السرائر ، وتجلية الضمائر .

وأحب فى هذا المقال أن أقف معك عند الوجه الثانى من وجهى الحياة الروحية المحمدية ، وهو وجهها بعد أن أصبح محمد عليه الصلاة والسلام ، نبيا للاســلام ، ومبعوثا لكافة الأنام ، يدعـــوهم الى الحق والخير والحب والسلام . وفى هذا الوجه من حياة نبى الاسلام نجد صفة الحياة الروحية المحمدية أحفل ما تكون بالمعانى النفسية ، والمتازع الروحية ، والمبادىء الخلقية ، مما ينبغى أن يأخذ به الانسان نفسـه ، ويحققه فى نفســه ، ويحقق معه الكمال سواء فى حياته الخاصة والعامة ، وسواء فى صلتـه بربه وصلته بأشباهه . وهذا يعنى بعبارة أصرح وأوضح أن الحيـــاة النفسية والعملية المحمدية بعد البعثة ، انما هى حياة روحية بكل ما فى لفظه الروحية من المعانى السامية والمثل الراقية والمبادىء العالية ممـــا عرفه الصوفية بعد ذلك فأقبلوا عليه ، ودعوا اليه ، وتحققوا به ، فكانوا بهذا كله أولياء لله ورسوله ، ملتمسين الهدى فى كتاب الله وسنة رسوله . وهو يعنى بعبارة أمعن فى الصراحة وأبلغ فى الوضوح أن الحياة الروحية المحمدية بما تألفت منه صفحتها الاولى سواء قبل البعثة أو بعـــدها هى التى تجعل من صاحبها عليه الصلاة والسلام ، أول زاهد صـــوفى فى الاسلام . ولهذا لم يكن غريبا ، ولا منافيا لطبيعة الاشـياء أن نرد زهد الزهاد ، وعبادة العباد ، ونسك النساك وتصوف الصوفية ، وما سلكه أولئك وهؤلاء فى حياتهم من مسالك ، وما ذهبوا اليه فى كتبهم من مذاهب وفيما اصطنعوه فى رياضاتهم ومجاهداتهم وأذواقهم من مناهج ، الى أصول

روحية لها منابعها الصافية ومناهلها الشافية ، فى الحياة الروحية المحمدية التى لم تكد تشرق شمسها فى سماء شبه الجزيرة العربيـــة حتى ملأت أرجاءها أولا ، وملأت أرجاء العالم بعد ذلك ، حقا وخيرا وجمالا ، وهدى ونورا وكمالا .

فاذا وقفنا عند الناحية العملية للحياة الروحية المحمدية بعد البعثة ، ألفيناها فياضة بأسمى قواعد السلوك ، مفعمة بأرقى قوانين الاخلاق ، بحيث لم تغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصتها ، وكيف لا يكون ذلك كذلك وقد خاطب الله عز وجل ، نبيه عليه الصلاة والسلام ، بقوله : « **وانك لعلى خلق عظيم** » . ونحن نتبين آيات هذا الخلق العظيم ، فى حياة النبى الكريم ، مما اتسم به عليه الصلاة والسلام من الخصال الشريفة، والصفات الحميدة : فلقد كان من استقامة القول ، وسلامة الفعل ، ورجاحة العقل ، وصدق الفراسة ، وحسن الكياسة ، وأصالة الرأى ، ونزاهة الحكم ، بحيث تهيأ له ما لم يتهيأ لغيره من القدرة على حل المشكلات ، واقتحام العقبات ، وبلوغ الغايات .

وكان عليه الصلاة والسلام من الصبر على الشـــدائد والمكائد، ومن الثبات فى البأســـاء والضراء ومن ســـكون النفس فى مختلف المواقف والاحوال وفى كل ما عرض له من خطوب وأهوال ، بحيث لم يكن يشكو أن يتبرم ، وبحيث لم تكن الشدة الا لتزيده اشتدادا وصبرا ، فهو — على حد قول الماوردى فى (**أعلام النبوة**) **مع الضعف يصابر صبر المستعلى ، ويثبت ثبات المستولى . وآية هذا كله ما رواه أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنه قال : « لقد خفت فى الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة ، وما لى ولبلال طعام يأكله ذو كبد ، الاشىء يواريه ابط بلال** »

وكان عليه الصلاة والسلام من الزهد فى الدنيا ، والاعراض عنها ، والقناعة بالقليل منها ، والازوراء عما يفتن الناس فيها من زخارف زائلة، ومباهج حائلة ، بحيث كان فى استطاعته أن يكون غنيا ولكنه آثر الفقر، وأن يكون صاحب جاه وسلطان ولكنه لم يرد الجاه ولا السلطان ، وأراد أن يكون أكمل انسان ، فكان ما أراد بحيث لم يكن فى الامكان أكمل مما كان ، وليس أدل على ذلك مما روى عنه صلى الله عليه وسلم من أنه قيل له : « **ان شئت أعطيت خزائن الارض ما لم يعط احـــد من قبلك ، ولا يعطاه أحد بعدك ، ولا ينقصك فى الآخرة شىء . قال : اجمعوها لى فى الآخرة فنزلت : « تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك ، جنـات تجرى من تحتها الانهار ، ويجعل لك قصورا** »

وكان عليه الصلاة والسلام من التواضع ، ولين الجانب ، ورقة الحاشية، وخفض الجناح ، بحيث لم يكن يستكبر أو يستعلى على أحد ، وانما هو من الناس كأى من الناس ، يمشى فى الاسواق ويجلس عـــلى الارض ، ويخالط أصحابه وجلساءه فلا يتميز منهم الا باطراقه وحيائه . ويتبين

هذا كله اذا لاحظنا ما ينطوى عليه قوله لبعض الاعراب من أسمى معانى التواضع وذلك اذ ارتاع هذا الاعرابى عندما رأى الرسول ، فقال له عليه الصلاة والسلام : « **خفض عليك فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة** » .

وكان عليه الصلاة والسلام من العفو عندما يقدر ، ومن الصفح حينما يقهر حتى لقد قال لقريش حين ظفر بهم عام الفتح وقد اجتمعوا به : « **ما ظنكم بى ؟ قالوا : ابن عم كريم ، فان تعف فذاك الظن بك ، وان تنتقم فقد أسأنا . فقال : بل أقول كما قال يوسف لاخوته : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** » . وقال كذلك : « **اللهم قد أذقت أول قريش نكالا ، فأذق آخرهم نوالا** » ... ».

وكان عليه الصلاة والسلام من صفاء الحب ، ونقاء الود ، وحفظ العهد، والوفاء بالوعد ، بحيث اذا قال فعل ، واذا حدث صدق ، واذا عاهد لم ينقض عهدا ، واذا وعد لم يخلف وعدا ، يرى الغدر من أكبر الكبائر ، والاخلاف من أسوأ المساوىء ، ونقض العهد بعد ميثاقه من أنقص النقائص

فكل أولئك طائفة من الخصال الكريمة التى تألفت منها ومن كثير غيرها من الخصال الكريمة الاخرى ، الحياة الروحية المحمدية فى مسالكها العملية. فاذا أضفنا اليها بعض ما كان يأخذ به النبى صلى الله عليه وسلم نفسه رياضة ومجاهدة كان قوامها عنده الاعتكاف والتهجد والاستغفار ، وما كان يركن اليه ، ويعول عليه ، فى تصفية نفسه ، وتنقية قلبه ، حتى بلغ من هذا كله أقصى ما يبلغه بشر من مراتب الكمال ، استطعنا أن نتبين من خلال هذا كله ، العناصر العملية التى كان يتألف منها الدستور الخلقى للحياة الروحية المحمدية ، واستطعنا أن نتبين أيضا أن هذا الدستور انما هو الاساس الذى أقيم عليه كل دستور صوفى فى الاسلام ، وأن الذين يردون الحياة الروحية الاسلامية الى أصول أجنبية عن الاسلام والذين يتحرجون من رد هذه الحياة الروحية الاسلامية الى أصلها الاول فى تحنث محمد قبل البعثة ، بدعوى أن التحنث كان عادة من عادات العرب فى الجاهلية ، لم يكن أولئك ولا هؤلاء من المنصفين أو المحققين ، واستطعنا آخر الامر أن نتبين أن أولئك وهؤلاء ، لو درسوا الحياة الروحية المحمدية بعد البعثة بصفة خاصة ، دراسة تحليل وتمحيص وموازنة فى ضوء المصادر الاسلامية الصحيحة ، لانتهوا معنا الى ما انتهينا اليه من أن يد محمد النبى العربى هى التى كتبت الصفحة الاولى من كتاب الحياة الروحية الاسلامية ، وها نحن أولاء قد وقفنا هنا على الجانب العملى من هذه الحياة ، ونرجو أن نقف عند الجانب النفسى والروحى منها فى المقال المقبل ، وعندها نستطيع أن نقول ان الحياة الروحية المحمدية هى المنبع الفياض بكل المعانى النفسية والخلقية والروحية ، وان صفحتها الاولى بمعانيها تلك هى التى تقرر كلمة الحق المبين ، وتبدد ظلمة الشك بنور اليقين .